لذة المعصية زائفة ولذة الطاعة باقية

نذكر بعض الأمثلة لذلك، فمن ذلك مثلا: الذين يتلذذون بسماع الأغاني، لا شك أنهم وإن لذَّذوا أنفسهم، ولكن عرضوها للعذاب، إذا كان أهل الطاعة يتلذذون بقراءة القرآن، وبذكر الله، وبدعائه ، وباستحضار عظمته، ويرون ذلك هو أعظم لذة، فهؤلاء الذين يجعلون بدل ذلك سماع أغنية فلان، وفلانة، وسماع صوت المطرب والمطربة، والفنان والفنانة، وما أشبه ذلك! أو كذلك يحضرون عند الذين يتغنون بأصوات رقيقة، وبنغمات مثيرة للأشجان، ونحو ذلك! إن هناك فرقا كبيرا بين الذين نعيمهم لذة يُحِبُّهَا الله تعالى: ذكره، وتلاوة كتابه، والذين نعيمهم غناء، وزمر، ورقص، وتمايل، وتَفَنُّنٌ في هذه الأصوات، فيكونون قد حَرَمُوا أنفسهم التلذذ بالطاعة، واستبدلوا بها التلذذ بالمعصية، وعلامة ذلك أنهم يستثقلون كلام الله، يستثقلون سماع القرآن، وأنهم يستبدلونه بهذا الغناء ونحوه، لا يجتمعان أبدا. يقول ابن القيم رحمه الله: حب القرآن وحب ألحان الغنا في قلب عبدٍ ليس يجتمعانِ يعني: أن الذي يُحِبُّ القرآن لا بد أن يكره سماع الغناء، وأن يَنْفُرَ منه، والذي يَلْتَذُّ بالغناء لا بد أن يثقل عليه سماع كلام الله، وهذا واقع كثيرا في المتقدمين وفي المتأخرين، حتى قال فيهم بعض الشعراء: تُلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة لكنه إطراق ساهٍ لاهِي وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا والله ما رقصوا لأجل اللهِ يعني: أنهم لما سمعوا القرآن أطرقوا، ولكن مع سهو ولهو، ولما جاء الغناء طاروا به فرحا، كأنهم سمعوا نعيمهم ولذتهم، طاروا به فرحا، كالحمير: شبههم بمثل سَيِّئٍ. وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا والله ما رقصوا لأجل اللهِ دف ومزمار ونغمة شادنٍ فمتى رأيت عبادة بملاهي يعني: أن طربهم بهذا الدُّفِّ...بهذه الدفوف والطبول، وبهذه المزامير، وبهذه النغمات- النغمات الموسيقائية، والنغمات المحركة، والمثيرة للهمم وللفساد، وللاندفاع إلى الفواحش- وما أشبهها، ثم شبَّه هذا بأنه خمر بقوله: إن لم يكن خمر الجسوم فإنه خمر العقول مماثل ومُضَاهي يعني: هذه الأصوات وهذه الأغاني هي خمر العقول، وإن كانت لا تُسْكِرُ الأجسام، ولكن تسكر العقول وتُغَيِّرُهَا، ثم يقول: انظر إلى النشوان عند شرابه وانظر إلى النشوان عند ملاهي وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي واحكم بأي الخمرتين أحق بالت تحريم والتأثيم عند اللهِ فالذين ابتلوا بسماع الأغاني ومحبتها لا يحبون القرآن، بل يستثقلونه، يقول فيهم بعض الشعراء: وإذا تلا القاري عليهم سورة فأطالها عدوه في الأثقال ويقول قائلهم: أطلت! وليس ذا عشر فَخَفِّفْ.. أنت ذو إملال! فهكذا يكون حالة الذين يحبون الغناء، وينفرون من القرآن ومن سماعه، لا شك أنهم- وإن تلذذوا به في الدنيا- فإن لذتهم تنقلب حسرة، ويعاقبهم الله بأن يحرمهم لذة الجنة، وما فيها من الطرب ونحوه. قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن في الجنة الحور العين، وأنهن يُطْرِبْن مَن يَدْخُلُهَا، يقلن: { نحن الخالدات فلا نموت أبدا، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا، طوبى لمن كان لنا وكنا له } هذا سماع أهل الجنة. وأما سماع أهل الدنيا فهو: هذه النغمات، وهذه المراقص، وهذه الكلمات البذيئة، وإن تنعموا بها، أما أولياء الله تعالى فإن تلذذهم بسماع القرآن، وبالصلاة، وبالتهجد، وما أشبه ذلك. يقول بعض العلماء: رُوِيَ عن أبي سليمان الداراني رحمه الله قال: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم! أهل الليل يعني: التهجد.. الذين يتهجدون طوال الليل، يُصَلُّون، ويتدبرون القرآن، يقومون ويقعدون، يركعون ويسجدون، يخشعون لربهم ويخضعون، يتواضعون لله يدعونه مخلصين له الدين، هؤلاء لذتهم بهذه العبادة أَلَذُّ من أهل اللهو، أهل اللهو يعني: أهل الغناء، وأهل المزامير، وأهل الرقص، وأهل التمايل، وأهل الآلات -آلات اللهو ونحوها: الأعواد، والطبول وما أشبهها- في نظرهم أنهم يتلذذون، وأنهم يتنعمون، ولكن فرق كبير بينهم، وبين أهل التهجد، هؤلاء يتلذذون بِذِكْرِ الله، ويجدون له نشوةً، وطربا، وسرورا، وقوة في قلوبهم، وقوة في أجسامهم، ومع ذلك يثيبهم الله في دنياهم وأخراهم، وهؤلاء الآخرون -أهل اللهو- وإن تنعموا في دنياهم، ولكن مآلهم -والعياذ بالله- إلى الخسران، وإلى الخوف، وإلى العذاب عاجلا وآجلا، وإلى الذُّلِّ في الدنيا، فإن أهل المعاصي لا بد أن الله تعالى يُذِلُّهُمْ كما رُوِيَ عن الحسن أنه قال: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهَمْلَجَتْ بهم الْبَرَاذِينُ، فإنَّ ذُلَّ المعاصي لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يُذِلَّ مَنْ عصاه! يعني: لا بد أن الله يُذِلَّ العصاة، ويُظْهِرُ ذُلَّهُمْ في دنياهم أو في أُخْرَاهم. وكان بعض الصالحين يقول: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُقِ دابتي وامرأتي، يعني: إذا عمل سيئة -ولو كانت صغيرة- رأى أثر هذه المعصية عاجلا، حتى في خُلُق دابته التي يركبها كفرس أو بَغْلٍ أو بَعِيرٍ أو نحو ذلك، وفي خُلُقِ امرأته -التي هي زوجته- يرى أثر ذلك بأن تتسلط عليه، وبأن تسيء عشرته، أو تسيء خُلُقَها معه، هذه عقوبة في الدنيا. لا شك أن المسلم الذي يعرف الله تعالى، ويعرف حَقَّهُ عليه، لا بد أنه يحرص على طاعة الله تعالى، ويحتسب أجره، يعرف أن ثواب الطاعة في الدنيا عاجل، بحيث إن الله تعالى يُعَجِّلُ له الحسنة في الدنيا، ويجيب دعوته إذا دعا رَبَّهُ بقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة! فحسنة الدنيا: الحياة السعيدة، وحسنة الدنيا: الصحة، وحسنة الدنيا: الرزق الهنيء، وحسنة الدنيا: الأمن، والسرور، والاطمئنان وما أشبه ذلك.. وحسنة الآخرة لا يعلم قَدْرَها إلا الله، وهي الجنة التي عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خَطَر على قَلْبِ بَشَرٍ.